هل يجوزُ أنْ أقولَ: مَدَد يا حسين؟

والجوابُ بكُلِّ تأكيدٍ: لا يجوزُ لكَ أنْ تقولَ: مَدَد يا حسين، ولا: مَدَد يا بدوي، ولا: مَدَد يا رسول الله، ولا: مَدَد يا جبريل؛ لأنَّ هذا شِركٌ باللهِ تعالى.

قال اللهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨].

فاللهُ تعالى لا يَرضَى أن يُشرَكَ معهُ أَحَدٌ في عبادتِهِ، لا مَلَكٌ مُقرَّبٌ، ولا نَبِيٌّ مُرسَلٌ؛ لأنَّ العبادةَ خاصَّةٌ بهِ سبحانَهُ.

قال تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥].

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ * وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩ – ٨٠].

وإنَّما طَرَحتُ هذا العنوانَ مجاراةً لِمَا هو منشور في وسائل التواصل الاجتماعي بهذا العنوان، فأحببتُ أن تكونَ الكلمةُ بنفسِ العنوانِ؛ ليصل إليها مَن يُشاهِدُ كلماتِ هؤلاءِ.

والغريب: أنَّه مع كثرةِ ما هو متداولٌ في هذا الشأنِ؛ فإنَّ الردودَ عليها قليلةٌ جدًّا.

تنبيه: كثرةُ المشاهداتِ لا تعني قناعةَ الناسِ بما يشاهدون، فكثيرٌ من المشاهداتِ إنَّما تكونُ من بابِ معرفةِ ما يقال، وللردِّ أيضًا، فلا تنزعجْ من ذلكَ.

ثم أهلُ الأهواءِ والبدعِ لن يكونَ أكثرَ أتباعًا من إبليسَ، فلا تَذهَبْ نفسُكَ عليهم حَسَراتٍ. قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

وقبلَ الردِّ أقدِّمُ بأربعِ مُقدِّماتٍ:

وقد يقال: لماذا هذهِ المُقدماتُ بين يَدَي الردِّ؟

فأقولُ: من المعلومِ أنَّ الهدمَ أسهلُ من البناءِ، فما أسهلَ أنْ تَهدِمَ بيتًا في ساعةٍ، وما أصعبَ أنْ تُعِيدَ بناءَهُ.

والشُّبهاتُ ما أَسهَلَ أن تَطرَحَهَا على الناسِ، لكنْ اقتلاعُهَا من قلوبِهِم يَتَطَّلَبُ تأصيلًا لهدمِ الباطلِ؛ فالشبهاتُ لا تنتهي، وإذا رَدَدتَ على هذهِ الشُّبهةِ، خَرَجَ لكَ بشبهةٍ أخرى، وهكذا، فإذا ضَبَطتَ الحُجَّةَ سَهُل عليكَ الردُّ على الشُّبهةِ، ولو لم تَسمَعْ بِهَا من قبلُ.

المقدمة الأولى: قضيةُ التوحيدِ والشركِ، هي محورُ دَعَواتِ الرُّسُلِ والأنبياءِ:

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ...﴾ الآية [النحل: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِله إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وحكى اللهُ تعالى عن كلِّ نبيٍّ أنَّه افتتح دعوتَهُ بالدعوةِ إلى توحيدِهِ تعالى، وإفراده بالعبادة:

فقال تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِله غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩].

وقال عن هود عليه السلام: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِله غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٦٥].

وقال عن صالح عليه السلام: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِله غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٧٣].

وقال عن شعيب عليه السلام: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِله غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٨٥].

وقال عن إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ المشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩].

وقال عيسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ

فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾. الآية [المائدة: ١١٦ - ١١٧].

وفي «صحيح مسلم» (٨٣٢)، من حديثِ عمرِو بنِ عَبَسة رضي الله عنه أنَّه قال: كنتُ وأنا في الجاهلِيَّةِ أَظُنُّ أَنَّ النَّاسَ على ضلالَةٍ، وأنَّهم ليسوا على شيءٍ وَهُمْ يَعبُدُونَ الأوثانَ، فسَمِعتُ برَجُلٍ بمكَّةَ يُخبِرُ أَخْبَارًا، فَقَعَدْتُ على راحلَتِي، فَقَدِمْتُ عليهِ، فإذا رسولُ اللهِ ﷺ مُستَخفِيًا، جُرَءَاءُ عليهِ قومُهُ، فتَلَطَّفْتُ، حتَّى دَخَلتُ عليهِ بِمَكَّةَ، فقلتُ لهُ: ما أنتَ؟ قال: «أنا نَبِيٌّ»، فقلتُ: وما نبيٌّ؟ قال: «أَرْسَلَنِي اللهُ»، فقلتُ: وبأيِّ شَيْءٍ أَرسَلَكَ، قال: «أَرسَلَنِي بِصِلَةِ الأرحامِ، وكَسْرِ الأوثانِ، وأنْ يُوَحَّدَ اللهُ، لا يُشرَكُ بهِ شيءٌ».

وفي «الصحيحين» في قصةِ هِرَقل مع أبي سفيانَ بنِ حربٍ رضي الله عنهُ، لمَّا سألَهُ عن النبيِّ ﷺ: بماذا يأمركُمْ؟ قلتُ: يقولُ: «اعبُدُوا اللَّهَ وحدَهُ، ولا تُشركوا بهِ شيئًا، واتْرُكُوا ما يقولُ آبَاؤُكُمْ، ويأمُرُنَا بالصلاةِ، والزكاةِ، والصِّدْقِ، والعفافِ، والصِّلَةِ».

بل إنَّ التوحيدَ هو الذي لأَجْلِهِ أَنزَلَ اللهُ الكُتُبَ على رُسُله وأنبيائِهِ:

قال تعالى: قال تعالى: ﴿الر * كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ * أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ [هود: ١ - ٣].

وهو أولُ واجبٍ على العبيد:

ففي «الصحيحين» من حديث معاذ رضي الله عنه أنَّه قال: كنتُ رِدْفَ رسولِ اللهِ ﷺ على حمارٍ، يقالُ له: عُفَيرٌ، قال: فقال: «يا معاذُ، تدري ما حقُّ اللهِ على العبادِ؟ وما حقُّ العبادِ على اللهِ؟» قال: قلتُ: اللهُ ورسولُهُ أعلمُ، قال: «فإنَّ حقَّ اللهِ على العبادِ أنْ يَعبُدُوا اللهَ، ولا يُشرِكُوا بهِ شيئًا ...» الحديث.

وهو أولُ أَمْرٍ أَمَرَ اللهُ تعالى بهِ في القرآنِ:

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

قال الطبريُّ في «تفسيره»: قال ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾: وحِّدوا ربَّكُم.

بل لا تُسمَّى العبادةُ عبادةً إلا مع التوحيدِ:

كما أنَّ الصلاةَ لا تُسمَّى صلاةً إلا مع الطهارةِ، **بل أمرُ التوحيدِ أعظمُ من الصلاةِ، لأنَّ الوقوعَ في الشركِ الأكبرِ يترتب عليه آثار وخيمة:**

منها: أنَّه يُحبِطُ جميعَ الأعمالِ:

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥].

و﴿عَمَلُكَ﴾ مفردٌ مضافٌ إلى الضميرِ، فيفيدُ العمومَ، أي: عمومَ الأعمالِ، فالشركُ لا يَتركُ حَسَنةً إلا وأَحبَطَ أجرَها.

ومنها: أنَّه لا يُغفَرُ لصاحبِهِ إذا مات عليهِ من غيرِ توبةٍ:

فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [**النساء: ٤٨**].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [**النساء: ١١٦**].

ومنها: أنَّ مَن مات عليه، فإنَّه يُخلَّدُ في نارِ جهنمَ:

قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالمينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [**المائدة: ٧٢**].

وأخرج البخاري (٤٤٩٧)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «مَن مات وهو يَدعُو مِن دونِ اللهِ نِدًّا؛ دَخَل النارَ».

وأخرج مسلم (٩٣)، من حديث جابر رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «مَن لَقِيَ اللهَ يُشرِكُ بِهِ شيئًا؛ دَخَل النارَ».

بل إنَّ الشريعةَ لأجلِ حمايةِ جنابِ التوحيدِ، سَدَّتْ كُلَّ طريقٍ يُوصِلُ إلى الشركِ باللهِ تعالى:

[١] ففي «صحيح البخاري»، من حديثِ عمرَ رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «لَا تُطرُونِي، كَمَا أَطْرَتِ النَّصارى ابنَ مريمَ، فإنَّما أنا عَبدُهُ، فقولُوا: عبدُ اللهِ ورسولُهُ».

والإطراءُ: هو مجاوزةُ الحَدِّ في المدحِ، والكذبُ فيهِ.

[٢] ولمَّا قال لهُ رجلٌ: يا محمدُ، يا سيِّدَنَا وابنَ سيِّدَنَا، وخَيرَنَا وابنَ خَيرِنَا، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «يا أيُّها الناسُ، عليكُم بتَقوَاكُم، لا يَستَهوِيَنَّكُمُ الشيطانُ، أنا محمدٌ بنُ عبدِاللهِ، عبدُاللهِ ورسولُهُ، واللهِ، ما أُحِبُّ أنْ تَرفَعُونِي فوقَ مَنزِلَتِي التي أَنزَلَنِي اللهُ». أخرجه أبو داود.

[٣] ولمَّا قال له رجلٌ: ما شاءَ اللهُ وشئتَ، فقال: «أجعلتني لله نِدًّا، بل ما شاء الله وحده». أخرجه أحمد، من حديث ابن عباس رضي الله عنه.

[٤] ولمَّا قالتْ لهُ امرأةٌ: وَفِينَا نَبِيٌّ يَعلَمُ مَا فِي غَدٍ! أنكَرَ عليها ﷺ، وقال لها: «لا تَقُولي هكذا، وقُولِي ما كنتِ تَقُولِينَ». أخرجه البخاري، من حديث الرُّبيِّع بنتِ مُعوِّذ رضي الله عنها.

قال الحافظ في «فتح الباري» ٩/ ٢٠٣: «زاد في رواية حماد بن سلمة: (لَا يَعلَمُ ما في غَدٍ إلا اللَّهُ)، فأشار إلى علَّةِ المنعِ».

وأمَّا صنيعُ الصحابةِ رضي الله عنهم:

[١] فهذا عمرُ رضي الله عنه لمَّا حَجَّ، وقَبَّلَ الحَجَرَ الأسودَ، قال: أَمَا وَاللهِ، لَقَدْ عَلِمتُ أنَّك حَجَرٌ، ولولا أنِّي رأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ يُقَبِّلُكَ مَا قَبَّلتُكَ.

=كما نَهَاهُم رضي الله عنه عن تَتَبُّعِ آثارِ النبيِّ ﷺ، وقال: هكذا هَلَكَ أهلُ الكتابِ، اتَّخَذُوا آثارَ أنبيائِهِم بِيَعًا، مَن عَرَضَتْ لَهُ منكم فيهِ الصلاةُ فَليُصَلِّ، ومَن لم تَعرِضْ لهُ منكم فيهِ الصلاَة، فلا يُصَلِّ. أخرجه ابن أبي شيبة.

=وأَمَر بقطعِ الشجرةِ التي بايع الصحابةُ رضي الله عنهم النبيَّ ﷺ تحتَها. أخرجه ابن سعد.

[٢] وهذا عليٌّ رضي الله عنه لمَّا قيل لهُ: إنَّ ها هنا قومًا على بابِ المسجدِ، يَدَّعونَ أنَّك ربُّهم، فدَعَاهُم، فقال لهم: وَيلَكُم! ما تقولونَ؟ قالوا: أنت ربُّنا، وخالِقُنا، ورَازِقُنا! فقال: وَيلَكُم! إنَّما أنا عبدٌ مثلُكُم، آكلُ الطعامَ كما تأكلونَ، وأَشرَبُ كما تشربونَ، إنْ أَطَعتُ اللهَ أَثَابَنِي إنْ شاءَ، وإنْ عَصَيتُهُ خشيتُ أنْ يُعذِّبَنِي، فاتَّقوا اللهَ، وارْجِعُوا، فأَبَوا، فلمَّا كان الغدُ، غَدَوَا عليه، فجاء قَنْبَرُ، فقال: قد واللهِ رَجَعُوا يقولونَ ذلكَ الكلامَ، فقال: أَدخِلْهُمْ. فقالوا كذلكَ، فلمَّا كان الثالثُ، قال: لَئِنْ قلتُم ذلكَ؛ لَأَقتُلَنَّكُم بأخبثِ قِتْلَةٍ، فأَبَوا إلا ذلكَ،

فَخُدَّ لهم أخدودًا بين بابِ المسجدِ والقَصْرِ، وجاء بالحَطَبِ، فَطَرَحَهُ بالنارِ في الأخدودِ، وقال: إنِّي طَارِحُكُم فيها، أو تَرجِعُوا، فأَبَوا أن يَرجِعُوا، فقَذَفَ بهم فيها، حتى إذا احتَرَقُوا، قال:

إنِّي إذا رأيتُ أمرًا مُنكَرًا *** أَوقَدتُ ناري ودَعَوتُ قَنْبَرا

أخرجها أبو طاهر المُخلِّص في «الجزء الثالث من حديثه»، وحسَّن إسنادَه الحافظ.

[٣] ولمَّا فَتَح الصحابةُ رضي الله عنهم تُسْتَر، وَجَدُوا في بيتِ مالِ الهُرمُزانِ سريرًا عليهِ رجلٌ ميِّتٌ، فلمَّا سألوا عنهُ، أُخبِروا أنَّه دانيالُ، فحَفَروا بالنهارِ ثلاثةَ عشرَ قبرًا مُتفرِّقةً، فلمَّا كان الليلُ دَفَنُوهُ، ثم سوَّوا القبورَ كلَّها، تعميةً على الناس؛ لِئلَّا يَنبشوه.

قال ابن القيم (ت ٧٥١ هـ) في «إغاثة اللهفان»، تعليقًا على هذه القصة: «ففي هذه القصةِ ما فَعَلهُ المهاجرونَ والأنصارُ مِن تعميةِ قبرِهِ؛ لِئلَّا يَفتَتِنَ بِهِ الناسُ، ولم يُبرِزُوهُ للدُّعاءِ عندهُ، والتبرُّكِ بِهِ، ولو ظَفِرَ بِهِ المستأخرونَ؛ لجَالَدُوا عليهِ بالسُّيُوفِ، وَلَعَبَدُوهُ من دونِ اللهِ».

وأمَّا صنيع التابعين:

[١] فهذا الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، لما رأى رجلا يأتي عندَ قبرِ النبيِّ ﷺ يَدعُو، فنادَاهُ، وقال لهُ: مالِي رأيتُكَ عندَ القبرِ؟ قلتُ: سَلَّمتُ على النبيِّ ﷺ، فقال: إذا دَخَلتَ المسجدَ فسَلِّمْ. ثم قال: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «لا تتَّخذوا قبري عيدًا، ولا تتَّخذوا بيوتَكُم مقابرَ، لَعَنَ اللهُ اليهودَ، اتَّخذوا قبورَ أنبيائِهِم مساجدَ، وصَلُّوا عليَّ، فإنَّ صلاتَكُم تَبلُغُنِي حيثُمَا كنتُم»، ما أنتَ ومَن بالأندلسِ إلا سواءٌ. أخرجه سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة.

قال شيخ الإسلام بن تيمية في «اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم» ٢/ ٦٦٥: «فانظر هذه السُّنة: كيف مخرجُهَا من أهلِ المدينةِ وأهلِ البيتِ، الذين لهم مِن رسولِ اللهِ ﷺ قُرْبَ النَّسَبِ، وقُرْبَ الدَّارِ؛ لأنَّهم إلى ذلكَ أحوجَ من غيرِهِم؛ فكانوا لهُ أضبطَ».

[٢] وهذا عمرُ بنُ عبدالعزيزِ رحمه الله، لمَّا وَلِيَ الخلافة، وَكَّلَ أعوانًا يَمنَعُونَ الداخلَ من تقبيلِ الأرضِ بين يديهِ، ويُؤدِّبُهُم إذا قَبَّلَ أحدٌ الأرضَ. انظر: «مجموع الفتاوى».

وإليك شيئًا من أقوال العلماء في تقرير هذا الأصل:

قال الحافظ ابن رجب (ت ٧٩٥ هـ) في شرح حديث: ما ذئبانِ جائعانِ: «فالمحبُّونَ للَّهِ غايةُ مقاصدِهم من الخَلْقِ أنْ يُحبُّوا اللَّهَ ويطيعُوه، ويُفرِدُوهُ بالعبوديةِ والإلهيةِ، فكيفَ مَن يزاحِمُهُ في شيءٍ من ذلكَ؛ فهو لا يُريدُ منَ الخَلْقِ جزاءً ولا شُكُورًا، وإنَّما يَرجُو ثوابَ عملِهِ من اللَّهِ، كما قال اللَّه تعالى في حقِّ أنبيائِهِ ورُسُلِهِ: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ * وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩ - ٨٠] ...، فمِن هُنا كان خُلفاءُ الرُّسُلِ وأتباعُهُم من أُمراءِ العَدلِ وأتباعِهِم وقُضَاتِهِم، لا يَدْعُونَ إلى تعظيمِ نُفُوسِهِم ألبتَّةَ، بل إلى تعظيمِ اللَّهِ وحدَهُ، وإفرادِهِ بالعبوديةِ والإلهيةِ».

فهل الحافظ ابن رجب وهابي!!!

وهذا من الحرصُ من الشريعةِ على سَدِّ كُلِّ طريقٍ يُوصِلُ إلى الشركِ، يتضحُ لكَ أهميتُهُ عندما تَعلَمُ: أنَّ أولَ شركٍ وَقَع في بني آدمَ، كان في قومِ نوحٍ، وكان بسببِ الغُلُوِّ في الصالحينَ.

المقدمة الثانية: بيانُ حقيقةِ التوحيدِ الذي بَعَثَ اللهُ بِهِ الرُّسُل:

التوحيد: هو إفرادُ اللهِ تعالى بما يَختصُّ بِهِ.

وينقسمُ إلى ثلاثةِ أقسامٍ:

١ - توحيد الربوبيةِ.

٢ - وتوحيد الألوهيةِ.

٣ - وتوحيد الأسماءِ والصفاتِ.

وهذا التقسيم مستفادٌ من دلالة القرآن الكريم:

قال الله تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ له سَمِيًّا﴾.

فقوله تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾؛ هذا توحيد الربوبية.

وقوله: ﴿فَاعْبُدْهُ﴾؛ هذا توحيد الألوهية.

وقوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾؛ أي: شبيهًا ونظيرًا. وهذا توحيد الأسماء والصفات.

٢ - وقال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ﴾.

فقوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾؛ هذا توحيد الربوبية.

وقوله: ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾؛ هذا توحيد الأسماء والصفات.

وقوله تعالى: ﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾؛ هذا توحيد الألوهية.

تفسير هذه الأنواع:

أمَّا توحيد الربوبية: فهو إفرادُ اللهِ بما يَختصُّ به من الأفعالِ، كالخَلْقِ، والرَّزقِ، والإحياءِ والإماتةِ، والنفعِ والضَّرِ، وإنزالِ المطرِ، والتصرُّفِ في الكونِ، والتحليلِ والتحريمِ، ويَدخلُ في ذلك الإيمانُ بالقدرِ.

قال أحمد بن علي المقريزي (ت ٨٤٥) في «تجريد التوحيد المفيد»: «الربُّ مصدرُ ربَّ يَربُّ ربًّا فهو رابّ، فمعنى قوله: ﴿رَبِّ الْعَالمينَ﴾: رابُّ العالمينَ، فإنَّ الربَّ سبحانَهُ وتعالى هو الخالقُ، الموجِدُ لعبادِهِ، القائمُ بتربيتِهِم وإصلاحِهِم، المُتكفِّلُ بصلاحِهِم من خَلْقٍ، ورَزْقٍ، وعافيةٍ، وإصلاحِ دينٍ ودُنيا».

تنبيه: الخَلْقَ الذي اختصَّ اللهُ تعالى به هو الإيجادُ من العَدَمِ، ويَتبيَّنُ لك هذا في خَلْق آدم عليه السلام، فإنَّ اللهَ تعالى أَوجَدَهُ من العَدَم، وكذلك جميعُ مخلوقاتِ اللهِ تعالى هي إيجادٌ بعدَ عَدَمٍ. هذا هو معنى الخَلْقِ الذي اختصَّ اللهُ تعالى به، وأمَّا المخلوقُ، فإنَّه لا يَخلقُ من العَدَمِ، وإنما يُحوِّلُ المادةَ من حالٍ إلى حالٍ، كما يُحوِّلُ الطينَ والحديدَ، وغير ذلك -وهي في الحقيقة من خَلْقِ اللهِ تعالى، فهو الذي أَوجَدَ هذه المادةَ-، وليس خَلْقُ الآدميِّ القدرةَ على الإيجادِ من العَدَمِ.

ومما يدلُّك على أنَّ الخَلْقَ الذي اختصَّ اللهُ تعالى به هو الإيجادُ من العَدَم: ما جاء في الحديث القدسي: أنَّ اللهَ تعالى يقولُ: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ خَلْقًا كَخَلْقِي؟ فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا شَعِيرَةً».

قال النووي في «شرح صحيح مسلم»: «قوله تعالى: (فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً، أَوْ حَبَّةً، أَوْ شَعِيرَةً): معناه: فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً فيها روحٌ تتصرَّفُ بنفسِها، كهذه الذَّرَّةِ التي هي خَلْقُ اللهِ تعالى، وكذلك فَلْيَخْلُقُوا حبَّةَ حنطةٍ أو شَعِيرٍ، أي: لِيَخْلُقُوا حبَّةً فيها طَعْمٌ تُؤكَلُ، وتُزرَعُ،

وتَنبُتُ، ويُوجَدُ فيها ما يُوجَدُ في حبَّةِ الحِنطةِ والشعيرِ ونحوِهما من الحَبِّ الذي يَخْلقُهُ اللهُ تعالى. وهذا أمرُ تعجيزٍ».

وقال الشيخ محمد بن صالح العثيمين، كما في «مجموع فتاواه»: «غيرُ اللهِ تعالى لا يَخلُقُ كخَلْقِ اللهِ، فلا يُمكِنُهُ إيجادُ معدومٍ، ولا إحياءُ ميتٍ، وإنَّما خَلْقُ غيرِ اللهِ تعالى يكونُ بالتغييرِ، وتحويلِ الشيءِ من صفةٍ إلى صفةٍ أخرى، وهو مخلوقٌ للهِ عزَّ وجلَّ، فالمُصوِّرُ -مثلًا-، إذا صوَّر صورةً، فإنَّه لم يُحدِثْ شيئًا، غايةُ ما هنالك أنَّه حوَّل شيئًا إلى شيء، كما يُحوِّلُ الطينَ إلى صورةِ طيرٍ، أو صورةِ جملٍ، وكما يُحوِّلُ بالتلوينِ الرقعةَ البيضاءَ إلى صورةٍ ملونةٍ، فالمدادُ من خَلْقِ اللهِ عزَّ وجلَّ، والورقةُ البيضاءُ من خَلْق اللهِ عزَّ وجلَّ، هذا هو الفرقُ بين إثباتِ الخَلْقِ بالنسبةِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ وإثباتِ الخَلْق بالنسبةِ إلى المخلوقِ، وعلى هذا يكونُ اللهُ سبحانه وتعالى منفردًا بالخَلْقِ الذي يَختصُّ به».

وأمَّا توحيدُ الألوهيةِ: فهو إفراد الله سبحانه وتعالى بالعبادة بألَّا يتَّخذَ الإنسانُ مع اللهِ أحدًا يَعبدُهُ، ويَتقرَّبُ إليه، كما يَعبدُ اللهَ تعالى، ويَتقرَّبُ إليه، يخافُهُ، ويرجوهُ، ويتوكَّلُ عليهُ، ويَستغيثُ به فيما لا يقدرُ عليهِ إلا اللهُ.

وأمَّا توحيدُ الأسماءِ والصفاتِ: فهو إفرادُ اللهِ تعالى بِمَا سمَّى به نفسَهُ ووَصَفَ بِهِ نفسَه في كتابِهِ، أو على لسانِ رسولِهِ ﷺ، وذلكَ بإثباتِ ما أثبتَهُ، ونَفْي ما نَفَاهُ، من غيرِ تحريفٍ، ولا تعطيلٍ، ومن غيرِ تكييفٍ، ولا تمثيلٍ».

ويتعلَّقُ بأنواع التوحيدِ عدَّة مسائل:

المسألة الأولى: منزلة توحيد الربوبية:

توحيدُ الربوبيةِ حقٌّ، وأمرُهُ عظيمٌ، ولا يَصحُّ إيمانُ العبدِ إذا لـم يُؤمِنْ بِهِ، ولكنْ هذا النوعُ من أنواعِ التوحيدِ:

١ - ليس هو الغايةَ التي جاءت بها الرُّسُلُ، وأُنزِلَتْ من أجلها الكُتُبُ.

٢ - أَضِفْ إلى ذلك أنَّ مشركي العرب كانوا مُقرِّينَ بِهِ في الجملة -كما سيأتي-، ومع ذلك لـم يُدخِلهم في الإسلامِ.

٣ - ثم إنَّ توحيدَ الربوبيةِ مركوزٌ في الفِطَرِ كلها، فلو كان هو الغايةَ؛ لـما كان هناك حاجةٌ لإرسالِ الرُّسُلِ، وإنزالِ الكُتُبِ.

المسألة الثانية: موقف مشركي العرب من توحيد الربوبية:

هذا النوعُ من التوحيدِ قد أقرَّ به المشركونَ الأولونَ:

قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الميِّتِ وَيُخْرِجُ الميِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١].

وقال تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦١].

وقال تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ [الزخرف: ٨٧].

وقال تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ [العنكبوت: ٦٣].

وقال تعالى: ﴿قُلْ لمنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلمونَ * سَيَقُولُونَ للهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ للهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلمونَ * سَيَقُولُونَ للهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤ – ٨٩].

قال الطبري في «تفسيره» [البقرة: ٢٢]: «اللهُ جلَّ ثناؤُهُ قد أَخبرَ في كتابِهِ عنها [يعني: العرب] أنَّها كانت تُقِرُّ بوحدانيتِهِ، غيرَ أنَّها كانت تُشرِكُ في عبادتِهِ، ما كانت تُشركُ فيها، فقال جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقال: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١]».

* ومما يدلُّ أيضًا على إقرارِ مشركي العرب بربوبيةِ اللهِ تعالى ما هو مبثوثٌ في ثنايا أشعارِهِم:

قال عَنترة:

يَا عَبْلُ أَيْنَ مِنَ المنِيَّةِ مَهْرَبِي ... إِنْ كَانَ **ربِّي** في السَّمَاءِ قَضَاهَا

وقال زُهير بنُ أبي سُلمى:

فَلَا تَكْتُمُنَّ **اللهَ** ما في نُفُوسِكُمْ ... لِيَخْفَى ومَهْمَا يُكْتَمِ اللهُ يَعْلم

وقال حاتم الطائي:

أَمَا والَّذي لا يَعلم السِّرَّ **غيرُهُ** ويحيي العظامَ البِيْضَ وهي رَمِيْمُ

المسألة الثالثة: إنكار الربوبيةِ وُجِدَ في طائفةٍ قليلةٍ من المكَابِرِينَ المعانِدِينَ، المنكِرِينَ لِمَا تقرَّر في فِطَرِهِم؛ وإنكارُهُم هذا إنَّما كان بألسنتِهِم، كفرعون، والملاحدة.

لذا قال ابن أبي العز في «شرح العقيدة الطحاوية»: «وهذا التوحيدُ لم يَذهبْ إلى نقيضِهِ طائفةٌ معروفةٌ من بني آدمَ، بل القلوبُ مفطورةٌ على الإقرارِ به أعظمَ من كونِها مفطورةً على الإقرارِ بغيرِهِ من المخلوقاتِ، كما قالت الرُّسُلُ فيما حكى اللهُ عنهم: ﴿أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠].

المسألة الرابعة: كلمة التوحيد (لا إله إلا الله): معناها: لا معبودَ بحقٍّ إلا اللهُ.

ولها ركنان: النفي. وهو قولك (لا إله)، والإثبات. في قولك (إلا الله).

فتَنفي الإلهيةَ عن كلِّ ما سوى اللهِ تعالى، وتُثبتها لله تعالى، وحدَهُ، لا شريكَ لهُ.

وممَّا يُبينُ لكَ أنَّ معنى (لا إله إلا الله) نَفْيُ العبادةِ عمَّا سوى الله، وإثباتُهَا للهِ تعالى:

١ – قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالمسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلهاً وَاحِدًا لَا إِله إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

وجه الدلالة: أنَّه لم يقل أحدٌ من النصارى: إنَّ الأحبارَ والرُّهبانَ شَارَكَتِ اللهَ في خَلْقِ السماواتِ والأرضِ، وإنَّما كان شِرْكُهُم في اتِّخاذِهِم إيَّاهُم أربابًا، بأنَّ عَبَدُوهم مع اللهِ [انظر: «فتيا في تعظيم المشايخ» لشيخ الإسلام بن تيمية (ص ١٧)]، فنَفَتِ الآيةُ استحقاقَ هؤلاءِ الأحبارِ والرهبانِ لشيءٍ من خصائصِ الألوهيةِ، وبيَّنَتْ أنَّ المستحقَّ لهذا هو اللهُ تعالى وحده، وهذا النفيُ والإثباتُ هو معنى (لا إله إلا الله).

٢ – وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢].

وجه الدلالة: أنَّ كلَّ عبادةٍ لغيرِهِ فهي عبادةٌ باطلةٌ، وأنَّ العبادةَ الحقَّةَ لا تكونُ إلا له وحدهُ، وهذا النفيُ والإثباتُ هو معنى (لا إله إلا الله).

٣ – وقوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ

وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٦ – ٥٧].

وجه الدلالة: أنَّ هؤلاءِ المدْعُوِّينَ من دونِ اللهِ تعالى لا يملكونَ كشفَ الضُّرِّ عن أحدٍ أو تحويله، وأنَّ المستحقَّ لذلك هو اللهُ وحدهُ، وهذا النفيُ والإثباتُ هو معنى (لا إله إلا الله).

٤ – وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ [الزخرف: ٢٦ – ٢٧].

وجه الدلالة: أنَّ إبراهيمَ عليه السلام تبرَّأَ من كلِّ معبودٍ سوى الله تعالى، وبيَّن أنَّ المستحقَّ لذلكَ هو اللهُ تعالى وحدَهُ، وهذا النفيُ والإثباتُ هو معنى (لا إله إلا الله).

٥ – وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وجه الدلالة: أنَّ اللهَ تعالى ذمَّ في هذه الآية هؤلاءِ الذين اتَّخذوا أندادًا يحبونَهُم كحبِّ اللهِ، وأثنى على المؤمنينَ الذي أخلصوا له المحبةَ التعبُّديةَ، وهذا النفيُ والإثباتُ هو معنى (لا إله إلا الله).

٦ – وفي «صحيح مسلم»، من حديث أبي مالك، عن أبيه، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «مَنْ قَالَ: لَا إِله إِلَّا اللهُ، وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مَنْ دُونِ اللهِ، حَرُمَ مَاله وَدَمُهُ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ».

قال بدر الدين العيني الحنفي (ت ٨٥٥ هـ) في «نُخَب الأفكار في تنقيح مباني الأخبار في شرح معاني الآثار» (١٢/ ١٩٤)، عند هذا الحديثِ: «فيه دلالةٌ صريحةٌ على أنَّ الكافرَ إذا قال: لا إله إلا الله، لا يُحكَمُ بإسلامِهِ، ولا يصحُّ إسلامُهُ، حتى يَكفُرَ بما يُعبَدُ من دونِ اللهِ، وهذا هو المرادُ من التبرؤِ عن سائرِ الأديانِ سوى دينِ الإسلامِ».

ولا يجوزُ لنا أنْ نقول: إنَّ معنى (الإله): (لا خالقَ إلا اللهُ)، أو: (لا قادرَ على الاختراع إلا اللهُ)، أو: (لا موجودَ إلا اللهُ)، أو (لا معبودَ إلا اللهُ)؛ لأنَّ كلمةَ (الإله) عند العربِ معناها: المألوهُ، المعبودُ، لأنَّها على وزن فِعال، بمعنى مفعولٍ، كغِراسٍ بمعنى مغروسٍ، وفِراشٍ بمعنى مفروشٍ، وكِتابٍ بمعنى مكتوبٍ؛ فـ(إله)، أي: مألوهٍ، والتأله في لغة العربِ، معناه: التنسُّكُ والتعبُّدُ:

ومما يؤكد أنَّ معنى (الإله) هو المعبودُ، لا على معنى: أنَّه الخالقُ الرازقُ ... إلى آخره:

أنَّ كفارَ قريشٍ لمَّا قال لهم رسولُ اللهِ ﷺ قولوا: (لا إلهَ إلا اللهُ)، قالوا كما أخبَرَ اللهُ تعالى عنهم: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥]، فلم يَفهم كفارُ قريشٍ عندما أَمَرَهُم النبيُّ ﷺ أنْ يقولوا (لا إله إلا اللهُ): أنَّ معناها: (لا خالقَ إلا اللهُ)، أو (لا قادرَ على الاختراعِ إلا اللهُ)؛ لأنَّهم لا يُنكرونَ ذلكَ، إنما أنكروا أنْ تكونَ العبادةُ كلها للهِ وحدَهُ لا شريكَ له.

وقد تقدَّم في مباحث الربوبية: أنَّ مشركي العرب كانوا مُقرِّين بالربوبيةِ، فإذا فسَّرنا (الإلهَ) بالقادرِ على الاختراعِ، كان المشركونَ -على هذا التفسيرِ- مؤمنينَ، وهذا خلافُ ما قصَّه اللهُ تعالى علينا من كُفرِهِم باللهِ، واتِّخاذِهِم مع اللهِ تعالى آلهةً أخرى.

فإذنْ معنى (لا إله إلا اللهُ)، أي: (لا معبودَ بحقٍّ إلا اللهُ)، ونُقدِّر كلمَة (بحقٍّ)؛ لأنَّ المعبوداتِ الباطلةَ كثيرةٌ، ولكنْ المعبودُ الحقُّ هو اللهُ وحدَهُ، لا شريكَ لهُ، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ [الحج: ٦٢].

المقدمة الثالثة: بيانُ حقيقةِ الشركِ الذي حرَّمه اللهُ على عبادِهِ:

حقيقةُ الشركِ الذي حرَّمه اللهُ على عبادِهِ، هو: تسويةُ غيرِ اللهِ باللهِ في شيءٍ من خصائصِ اللهِ تعالى.

أو: أنْ يتَّخِذَ من دونِ اللهِ نِدًّا، يُحبُّهُ كما يُحبُّ اللهَ، أو يَعبُدُهُ كما يَعبُدُ اللهَ، أو يُعظِّمُهُ كما يُعظِّمُ اللهَ، أو يَصرِفُ لهُ شيئًا من خصائصِ الربوبيةِ والإلهيةِ.

- ومن الأدلةِ على أنَّ هذا هو حقيقةُ الشركِ الذي نَهَى اللهُ تعالى عنه ما يلي:

١ – قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢].

قال قتادةَ ومجاهد: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾، أي: عُدَلَاءَ.

وقال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم: الأندادُ: الآلهةُ التي جَعَلُوهَا معهُ، وجعلُوا لها، مِثلَ ما جعلُوا لهُ.

قال الطبري (ت ٣١٠ هـ): «نَهَاهُمُ اللهُ تعالى أنْ يُشرِكُوا به شيئًا، وأنْ يَعبُدُوا غيرَهُ، أو يتَّخِذُوا له نِدًّا، وعِدْلًا في الطاعةِ، فقال: كَمَا لا شريكَ لِي في خَلْقِكُمْ، وفي رَزقِكُمُ الذي أَرزُقُكُم، ومُلكِي إيَّاكُم، ونِعمَتِي التي أنعمتُها عليكم، فكذلكَ، فأَفْرِدُوا لِيَ الطاعةَ،

وأَخلِصُوا لِيَ العبادةَ، ولا تَجعَلُوا لِي شَرِيكًا، ونِدًّا من خَلْقِي، فإنَّكم تَعلمونَ أنَّ كلَّ نعمةٍ عليكُم منِّي».

وأمَّا قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: فقال ابن عباس رضي الله عنهما: وأنتم تعلمونَ، أنَّه لا ربَّ لكم يَرزُقُكُم غيرُهُ، وقد عَلِمتُمْ أنَّ الذي يَدعُوكُمْ إليهِ الرسولُ من توحيدِهِ، هو الحقُّ، لا شكَّ فيهِ.

وقال قتادة: أي: تعلمونَ أنَّ اللهَ خَلَقَكُم، وخَلَقَ السماواتِ والأرضَ، ثم تجعلونَ لهُ أندادًا.

٢ – وقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١].

قال الطبري في «تفسيره»: «يَجعلونَ لهُ شريكًا في عبادتِهِم إيَّاهُ، فيَعبُدُونَ معهُ الآلهةَ والأندادَ والأصنامَ والأوثانَ، وليس منها شيءٌ شَرَكَهُ في خَلْقِ شيءٍ من ذلكَ، ولا في إنعامِهِ عليهم، بما أَنعَمَ بهِ عليهم، بل هو المُنفَرِدُ بذلكَ كلِّه، وهم يُشرِكونَ في عبادتِهِم إيَّاهُ غيرَهُ».

٣ – وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ ...﴾ الآية [البقرة: ١٦٥].

قال الطبري في «تفسيره»: «يعني –تعالى ذِكْرُهُ– بذلكَ: أنَّ مِن الناس مَن يَتَّخِذُ من دونِ اللهِ أندادًا لهُ، وقد بيَّنَّا فيما مَضَى أنَّ النِّدَّ: العِدلُ ...، وأنَّ الذينَ اتَّخَذُوا هذه الأندادَ من دونِ اللهِ يُحبُّونَ أندادَهُم، كحُبِّ المؤمنينَ اللهَ، ثم أخبَرَهُم أنَّ المؤمنينَ أشدُّ حُبًّا للهِ، من مُتَّخِذي هذهِ الأندادِ، لأندادِهِم».

٤ – وما حكاه اللهُ تعالى عن المشركينَ أنَّهم يقولونَ لمعبوداتِهِم يومَ القيامةِ: ﴿تَاللهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٧ – ٩٨].

قال الطبري في «تفسيره»: «يقولُ الغَاوُونَ للذينَ يَعبُدُونَهُم من دونِ اللهِ: تاللهِ، إنْ كُنَّا لَفِي ذَهَابٍ عن الحقِّ، حينَ نَعدِلُكُم بربِّ العالمينَ، فنَعبُدُكُم من دونِهِ».

٥ – وفي «الصحيحين»، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه أنَّه قال: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ: أَيُّ الذَّنْبِ عندَ اللهِ أعظمُ؟ قَالَ: «أَنْ تَجعَلَ للهِ نِدًّا، وَهُوَ خَلَقَكَ».

قال الشيخُ أحمدُ بنُ عليٍّ المَقرِيزِيُّ الشافعيُّ (ت ٨٥٤ هـ) في «تجريد التوحيد المفيد»

ص٥٣ – ٥٤؛ ط عالم الفوائد، عند قولِهِ تعالى: ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ * تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: «ومعلومٌ قطعًا: أنَّ هذه التسويةَ لم تَكُن بينهم وبين اللهِ، في كونِهِ ربَّهمُ وخالقَهُم، فإنَّهم كانوا كَمَا أَخبرَ اللهُ عنهم، مُقرِّينَ بأنَّ اللهَ تعالى وحدَهُ هو ربُّهُم، وخالقُهُم ...، **وإنَّما كانت هذهِ التسويةُ بينهم وبينَ اللهِ تعالى في المحبةِ والعبادةِ**».

وقال أيضًا ص٤٦ – ٤٧: «ولا ريبَ أنَّ توحيدَ الربوبيةِ، لم يُنكِرْهُ المشركونَ ...، وإنَّما أَنكَرُوا توحيدَ الإلهيةِ والمحبةِ، كما حَكَى اللهُ تعالى عنهم في قولِهِ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، **فلمَّا سوَّوا غيرَه به في التوحيدِ؛ كانوا مشركينَ**، كما قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلماتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]، وقال تعالى: ﴿وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٠]».

المقدمة الرابعة: إذا تبيَّن لكَ حقيقةُ التوحيد وحقيقة الشرك؛ فاعلَمْ: أنَّه لا يجوزُ لكَ بحالٍ من الأحوالِ أنْ تقولَ: مَدَد يا حسين، مَدَد يا بدوي.

لأنَّ هذا هو عينُ الشركِ باللهِ، حيثُ طلبتَ منهُ ما لا يَقدِرُ عليهِ إلا اللهُ تعالى.

ودعاؤك هذا هو شركٌ في الألوهية، حيثُ صَرَفتَ لهُ عبادةً من العباداتِ، وهي: الدعاء.

وإذا كنتَ تعتقدُ في هذا الذي تَدعُوهُ أنَّه يَملِكُ النَّفعَ والضُّرَّ استقلالًا من دونِ الله تعالى؛ فهذا شركٌ في الربوبيةِ، حيثُ نَسَبتَ لهُ شيئًا من خصائصِ الربوبيةِ.

وها هنا سؤالٌ يَطرحُ نفسَهُ: لماذا هؤلاءِ المشايخ أجازوا طلبَ المَدَدِ من الأمواتِ؟

والجواب أن يقال: منشأُ الضلالِ في هذا الباب هو اتباعُهُم للمتشابهِ من الأدلةِ، وتركُهُم للأدلة المُحكمَة.

قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ **فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ** ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ...﴾ الآية [آل عمران: ٧].

ولمَّا استمعتُ لكلامِ الدكتورِ أحمدَ البُصيلي، والدكتور يسري جبر، وعلي الجفري، وغيرِهِم، وَجَدتُ أنَّ شبهاتِ القوم تدورُ على أمرين:

الأمرُ الأولُ: اعتقادُهُم أنَّ الشركَ الذي حرَّمه اللهُ ورسولُهُ: هو الشركُ في الربوبيةِ، بأنْ يعتقدَ أنَّ لهم تأثيرًا مع اللهِ في الخَلْقِ والإيجادِ.

الأمرُ الثاني: أنَّ هؤلاءِ الأولياءَ الذي يُدعَون من دونِ اللهِ، إنَّما هم أسبابٌ، ووسطاءَ، وشفعاءَ.

وممَّا ينبغي أنْ يُعلَمَ: أنَّ هذه الشبهاتِ ليستْ جديدةً، بل شبهاتٌ مكرورةٌ، قد رَدَّ عليها أهلُ العلمِ، وبيَّنوا بطلانَها.

والردُّ عليها سيكونُ بجوابينِ: مجملٍ، ومُفصَّلٍ.

وقبل الردِّ أقول: عَلِمَ اللهُ تعالى أنَّني أُحِبُّ الخيرَ لهؤلاءِ المشايخِ ولغيرِهِم، وأرجو اللهَ تعالى أنْ يَشرَحَ صُدُورَهُم لسماعِ هذهِ المحاضرةِ، بآذانٍ صاغيةٍ، وقلوبٍ واعيةٍ، وأن يُراجِعُوا أنفسَهُم، ويَتَجرَّدوا لسماعِ الحُجَّة، وأنْ يَدَعُوا العِنَادَ والمكابرةَ، وأنْ يَحذَرُوا من إضلالِ العبادِ، فيَحملوا أوزارَهم على ظهورِهِم، فكُلُّنا موقوفٌ غدًا بينَ يَدَي اللهِ تعالى، ومسؤولٌ عمَّا يقول ويَنشرُ بينَ الناسِ.

فماذا يُضِيرُكَ لو أَمَرتَ الناسَ بإخلاصِ العبادةِ للهِ تعالى، وأنْ يتوجَّهوا بقلوبِهِم وألسنتِهِم للحيِّ القيومِ، الذي لا تأخذه سِنَةٌ ولا نومٌ؟ ماذا يُضِيرُكَ لو فَعَلتَ هذا؟ بدلًا من أنْ تقولَ لهم: قولوا: مَدَد يا حسين!

أمَّا الردُّ المجملُ الذي يُريحُكَ ويُغنيكَ عن طلبِ الردِّ المُفصَّلِ: فأنْ تعلَمَ أنَّ العبادةَ خاصةٌ باللهِ تعالى، وأنَّه لا يَجوزُ صَرْفُ شيءٍ منها لغيرِ اللهِ تعالى.

وأمَّا الردُّ المُفصَّل: فيُقالُ لهؤلاءِ المشايخِ:

أمَّا قولُكم: إنَّ الشركَ الذي حرَّمه اللهُ ورسولُهُ: هو الشركُ في الربوبيةِ، بأنْ يعتقدَ أنَّ لهم تأثيرًا مع اللهِ في الخَلْقِ والإيجادِ.

فيقالُ لهم: هذا الذي دعا غيرَ اللهِ فيما لا يَقدِرُ عليهِ إلا اللهُ لها حالتان:

الحالة الأولى: أنْ يَدعُوَ غيرَ اللهِ تعالى فيما لا يَقدِرُ عليهِ إلا اللهُ، وهو معتقدٌ أنَّ لهُ تأثيرًا، بمعنى: أنَّه يَنفعُ ويَضرُّ استقلالًا من دونِ اللهِ؛ **فهذا شركٌ الربوبيةِ**.

الحالة الثانية: أنْ يَدعُوَ غيرَ اللهِ تعالى فيما لا يَقدِرُ عليهِ إلا اللهُ، دونَ اعتقادٍ منهُ أنَّه يَنفعُ ويَضرُّ استقلالًا من دونِ اللهِ، لكنَّه دَعَاهُ؛ لأجلِ أنْ يتوسَّطَ لهُ عندَ اللهِ في الشفاعةِ له من العذاب، أو لِيَقضِيَ لهُ حاجةً، من شفاءِ مريضٍ، أو رَدِّ غائبٍ؛ **فهو شركٌ في الألوهيةِ**.

ووجهُ كونِهِ شِرْكًا في الألوهيةِ: أنَّه دَعَا غيرَ اللهِ، فيما لا يَقدِرُ عليهِ إلا اللهُ، وهذا الدعاءُ عبادةٌ، لا يجوزُ صَرْفُهُ لغيرِ اللهِ:

١ – قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ **ادْعُونِي** أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ **عِبَادَتِي** سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

فسَمَّى اللهُ الدعاءَ عبادةً.

٢ – وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ **فَلَا تَدْعُوا** مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨].

٣ – وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ **مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ** أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * **وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ** مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً **وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ**﴾ [الأحقاف: ٤ – ٦].

فبيَّن سبحانَهُ في هذه الآيات أنَّ دعاءَ غيرِهِ سبحانَهُ فيما لا يَقدِرُ عليهِ إلا هو، كُفْرٌ بِهِ.

٤ – وقال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ** مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ * إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ **وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ** وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣ – ١٤].

فبيَّن سبحانَهُ في هذهِ الآياتِ أنَّ هؤلاءِ المَدعُوِّينَ من دونِهِ لا يَملِكُونَ شيئًا.

ثم بيَّن أنَّ هذا الدعاءَ لهم شِرْكٌ بِهِ سبحانَهُ، فقال: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ **يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ**﴾، وهذا من أصرح الأدلة على أن دعاء غير الله فيما لا يَقدِرُ عليهِ إلا اللهُ شِرْكٌ.

ففي هذه الآياتِ البيانُ الواضحُ على أنَّ الدعاءَ عبادةٌ، وأنَّه لا يَجوزُ صَرْفُهُ لغيرِ اللهِ تعالى.

وأمَّا قولُكم: إنَّ هؤلاءِ الأولياءَ الذي يُدعَون من دونِ اللهِ، إنَّما هم أسبابٌ، ووسطاءَ، وشفعاءَ.

فيقال لهم: وهل كان شركُ مشركي العربِ إلا من هذا البابِ، بابِ الواسطةِ والشفاعةِ؟!

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (٢) أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٢ – ٣].

وقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨].

ففي هذه الآياتِ البيانُ الواضحُ أنَّ مشركي العرب إنَّما كَفَروا؛ لأجلِ أنَّهم اتَّخذوا الأولياءَ والصالحينَ واسطةً بينهم وبينَ الله، فذَبَحُوا لهم، ونَذَرُوا لهم، وطافُوا بقبورِهِم، ودَعَوهُم؛ لا لأجلِ أنَّهم أربابٌ يَنفعُونَ أو يَضُرُّونَ، بل لأجلِ أنْ يشفعوا لهم عندَ اللهِ بهذا التقرُّبِ.

وهذا هو نَفْسُ صنيعِ العاكفينَ عندَ قبورِ الأولياءِ والصالحينَ في زمانِنَا.

وأنا أرجو رجاءً خاصًّا من أمثال الشيخ علي جمعة، وعلي الجفري، وأسامة الأزهري، وأحمد البُصيلي، ويسري جبر، ومجدي عاشور، أنْ يُفسِّروا لنا هذهِ الآياتِ على ضوءِ اعتقادِهِ أنَّ التقرُّبَ للأولياءِ لأجلِ الوساطةِ والشفاعةِ ليس شركًا.

فإن هؤلاء المشايخ حقيقة قولهم: أنه لا يوجد شرك في الألوهية، وأن الشرك فقط في الربوبية.

وهذا الاعتقادُ اعتقادٌ ضالٌّ، مخالِفٌ لصريحِ القرآنِ، الذي بيَّن أنَّ شِرْكَ مشركي العربِ كان في طلبِ الشفاعةِ والقُرْبةِ، لا في اعتقادِهِم أنَّ هؤلاءِ الأولياءَ والصالحينَ يَنفَعُونَ أو يَضُرُّونَ.

والحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ.